الهجاء :

الهجاءُ فنٌّ أدبي قديم رافق المديح منذ عصر ما قبل الإسلام . وكان أول أمره يدور على التعيير بوضاعة النسب والبخلِ . والفقر . والقعود عن الغزو . والتقصير في حماية الجار . والعجز عن أخذ الثأر . والانهزام في الحرب . والاستسلام للأعداء . واستساغة الظلم (٧٠). ولما أطلّ الإسلام وأشرق نورُه على الناس قبُح الهجاء . وعدُهُ إثماً . فقد رُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قال في الإسلام هجاءً مقذعاً فلسانه مُذرٌ » .(٧١) ولذلك فتُر هذا الفنّ في عصر صدر الإسلام . ولكنه نما وزاد شررُه في العصر الأموي . وأخذ يتناول المثالب والمعايب . واحترفه شعراء

---

(٦٩) ديوان أبي تمام ١ : ٢٩٧ .

(٧٠) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص ٨٢ .

(٧١) العمدة ٢ : ١٧ لم أجد الحديث في الكتب الستة ولا في غيرها من الكتب ، ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لونسنك

النقائض احتراقاً . وأصبحت القبائل « تحتشد في المِرْبد وفي الكُناسة حول الشعراء يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء . وكأنهم وجدوا في ذلك لهواً لهم وتسلية » .(٧٢) وقلّ الإقبال عليها ، أي النقائض ، في العصر العباسي الأول ، وأصبحت مقتصرةً على شعراء قلائل مثل ابن مَيّادة ، والحكم الخُضْري ، وعبدالرحمن بن حُبيم الأسدي .(٧٣)

إنّ حجم الهجاء في العصر العباسي الأول كبير ، وقد تنوعت موضوعاته ، واختلفت اتجاهاته ، والكثير منه كان شخصياً يدفعه الحقد والغضب والحسد والانتقام . من ذلك مثلاً أنّ بشار بن بُرد هجا العباس بن محمد بن العباس ، وأبي الجريرة لأخيه المنصور ، لأنه بخُل عليه ولم يُسعفه بالمال :(٧٤)

ظِلّ اليسار على العباس ممدودُ وقلبُه أبداً بالبخل معقودُ
إنّ الكريمَ ليخفي عنك عسرتَهُ حتى تراهُ غنياً وهو مجهودُ
وللبخيلِ على أمواله عِللٌ زرقُ العيونِ عليها أوجه سودُ
إذا تكرهتَ أنْ تعطي القليلَ ولم تقدرْ على سعةٍ لم يظهر الجودُ
بِتَّ النوالَ ولا تمنعك قلتُه فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

فهو لم يكتفِ بتعنيفه على الشحّ وحجب المال عن المقبلين عليه ، بل ينصحه بإعانة الفقراء والمحتاجين وإن كانت الإعانة قليلة ، فهي تكسبه حمداً وشكراً .

ويلاحظ أحياناً في الهجاء الشخصي روح الاستخفاف والتهوين والتحقير ، فالقارىء لشعر حمّاد عجرد في بشار بن برد يلمس ذلك . يقول مثلاً :(٧٥)

وأعمى يشبهُ القِرْدَ إذا ما عمي القِرْدُ
دنيءٌ لم يَرُحْ يوماً إلى مسجدٍ ولم يَغْدُ
ولم يحضرْ معَ الخُضَّـ ـرِ في خيرٍ ولم يَبْدُ
ولم يُخْشَ له ذمٌّ ولم يُرْجَ له حمدُ
هو الكلبُ إذا ما ما تَ لم يوجدْ له فقدُ

---

(٧٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٧٨ .
(٧٣) الأغاني ٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
(٧٤) ديوانه ٢ : ١٢٧ .
(٧٥) الأغاني ١٤ : ٣٢٩ .

فلما سمع بشار هذا الشعر بكى . فقال له قائل ، أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال ، واللهِ ما أبكي من هجائه ، ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه ، فيصفني ولا أصفه .

إنَّ روحَ السخرية المريرة المتأتية من الكراهية المقيتة ، والحسد ، وهو داء قاتل كما يقال تؤذي كثيراً ، وتؤدّي إلى عواقب وخيمة . ولعل أصدق مثالٍ على ذلك قصيدة أبان اللاحقي في هجاء جار له اسمه محمد بن خالد بن عمار الثقفي تزوج من فتاة اسمها عمّارة بنت عبدالرحمن الثقفي طمعاً . وكانت كثيرة المال . قال :

لما رأيتُ البزَّ والشارة ... والفرْشَ قد ضاقت به الحارَة
والأوزَ والسكَّرَ يُرمى به ... من فوقِ ذي الدار وذي الدارَة
وأحضروا الملهين لم يتركوا ... طبلاً ولا صاحبَ زمارَة
قلتُ ، لماذا ؟ قيلَ ، أعجوبةٌ ... محمدٌ زوّجَ عمّارَة
لا عمّرَ اللهُ بها بيتَه ... ولا رأته مُدركاً ثارَة

وثمة أبيات يحرض فيها على التخلي عنه والنجاة منه بالهرب . وقد أفلح ـ كما يبدو ـ بهذه الفتنة . يقول الصولي ، فلما سمعتْ عمّارةُ هذه بشعره هربتْ » .(٣٦) وشبيه بهذا ـ وإنْ اختلفت صورة المرأة ـ ما جرى لحماد عجرد ، فإن مطيع بن إياس هجاه بهذه الأبيات مُستنفراً خليلته « ظَبية الوادي » على تركه :

ألا ياظبيةَ الوادي ... وذاتَ الجيدِ الرادِ
وزينَ المصرِ والدارِ ... وزينَ الحيِّ والنادي
وذاتَ المبسمِ الشنْبِ ... وذاتَ المِعصَمِ البادي
أما باللهِ تستحيينْ ... من خُلّةِ حمّادِ
فحمادٌ فتىً ليس ... بذي عِزٍّ فتستقادي
فتوبي واتقي اللهَ ... وبتّي حبلَ جرّادِ

---

(٣٦) أخبار الشعراء المحدثين ص ٢٤ ، الأغاني ٢٣ ، ١٦٤ .

قيل أخذها حكم الوادي فغنّى بها . فلم يبقَ بالكوفة سقّاءٌ ولا طحّان ولا مُكار إلا غنّى فيها .. وحينما علم حماد بالخبر قال له ، قتلتني قتلك الله .(٧٧)

ويأخذ الهجاء أحياناً طابع المزاح والظرف . من ذلك بيتان قالهما الحسين بن الضحّاك في مغنيةٍ كانَ قد عبثَ بها مرةً . فصاحت عليه واستخفتْ به . فأراد ان يُضحك الجالسين عليها . ويجعلها موضعَ سخريتهم فقال :(٧٨)

لـــها في وجـــهـــها غـــكَّـــنٌ ولـــلـــثـــا وجـــهـــها ذَقَـــنُ
وأســـنـانٌ كـــريـــش الـــبـــط بـيـنَ أصـولـهـا عَـفَـنُ

وبكت الجارية لذلك بكاء مرّاً . وشاع البيتان . فكسدت من أجلهما . وكانت إذا حضرتْ في موضعٍ أنشدوا البيتين فتَجنّ . ثم هربتْ من سرّ من رأى فما عُرفَ لها بعد ذلك خبرٌ . والواقع انّ في هذين البيتين هجاءً قاسياً . ولاسيما انها جارية مغنية جُلّ عملها في مجالس الطرب واللهو .

ومن العجب أنّ بعض الشعراء سلّطوا هجاءهم على أنفسهم ، وعلى الناس من حولهم . أقارب كانوا . أو زوجات . أو بنات . أو آباء . أو أصدقاء . أو قضاة . أو علماء . أو وزراء . أو خلفاء . أو متدينين . أو مُقيمين . إما تماجناً وتظرفاً حربياً وراء النادرة المسلية . والنكتة البارعة . أو انتقاماً لأنفسهم . وإيلاماً لمنافسيهم .(٧٩) فهذا أبو دُلامة يهجو نفسه ليضحك المهدي بقوله :(٨٠)

ألا أبـــلـــغْ إلـــيـــك أبا دُلامة فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لـــبـــسَ الـــعـــمامة كان قِرداً وخـــنـــزيراً إذا نزع الـــعـــمـــامـــة
جـــمـــعـــتَ دمامةً وجـــمـــعـــتَ لؤماً كذاك الـــلـــؤمُ تـــتـــبـــعُـــهُ الـدّمـامـة

---

(٧٧) الأغاني ١٣ : ٢٨٢ .
(٧٨) الأغاني ٧ : ٢٦٤ ، الحسين بن الضحاك ، حياته وشعره ص ١٩٧ .
(٧٩) ينظر الشعراء من مضطرمي الدولتين الأموية والعباسية ص ٢٢٨ ـ ٢٥٢ .
(٨٠) طبقات الشعراء ص ٥٧ ، الأغاني ١٠ : ٢٥٨ ، جمع الجواهر ص ١١١ .

ونلاحظ ابن أبي الزوائد يهجو زوجته لأنه ملّها وأبغضها ،(٨١) ونرى مطيع بن إياس هاجياً أباه ، متهكماً به ، ومحتقراً له ،(٨٢) ونجد بشاراً بن برد يهجو يعقوب بن داود وزير المهدي متهماً إياه بالغرور والكبر ،(٨٣) ويجترىءُ على الخليفة نفسه .

ولا يتورّعُ عن هجائه بأقذع الألفاظ وأشنع السباب متهماً له بالفجور والغفلة(٨٤) . وكان أبو نعامة محمد بن الدقيقي خبيث اللسان ، استفرغ شعره في الهجاء ، وله قصيدة مزدوجة باسم « السنيّة » ذكر فيها جميع رؤساء الدولة في أيام المتوكل من أهل سُرَّ من رأى وبغداد ورماهم بالقبائح ،(٨٥) وقد أخفى عدد من الشعراء الذين هجوا الخلفاء أسماءهم خشية العقاب والبطش. ومثال على ذلك الأبيات الآتية التي تظمها أحد الشعراء المجهولين في هجاء الأمين ، لأنه بايع لابنه الصغير موسى ،(٨٦)

أضاع الخلافة غشُّ الوزير ... وفسقُ الإمام وجهلُ المشير
ففضلٌ وزيرٌ ، وبكرٌ مشيرٌ ... يريدان ما فيه حتفُ الأسير
وما ذاكَ إلا طريقُ غرورٍ ... وشرُّ المسالكِ طُرقُ الغرور
وأعجبُ من ذا وذا أننا ... نبايعُ للطفل فينا الصغير

إن سهولة الألفاظ وبساطة التعبير والميل إلى الشعبية يغلب على فن الهجاء في هذا العصر ، إضافة إلى انه امتاز بمقطوعات أو قصائد ليست طويلة منظومة في بحور قصيرة أو مجزوءة .

وكان للنشاط الشعوبي في العصر العباسي الأول دورٌ كبيرٌ في بروز نوع من الهجاء عند عدد من الشعراء ، تعصّبوا على العرب ، وتطاولوا عليهم ، وتغنوا بمجدهم الساساني ، وكان على رأسهم الشاعر الأعمى بشار بن برد بن يرجوخ الذي تنكّرَ لنعمة العرب وغضَّ من شأنهم وحطَّ من قدرهم بأسلوب ساخر حتى عُدَّ أخطر شاعر

(٨١) الأغاني ١٤ : ١٢٨ .
(٨٢) الأغاني ١٣ : ٣٢٢ .
(٨٣) ديوانه ٣ : ٩٣ .
(٨٤) الأغاني ٣ : ٢٤٣ .
(٨٥) معجم الشعراء ص ٢٩٥ .
(٨٦) تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٣ .

أوقد نار الشعوبية . وهناك شعراء آخرون شاركوا في هذا الهجاء الخبيث ، منهم أبو نواس ، وأبان اللاحقي ، وأبو عبدالرحمن الهيثم بن عدي ، وعلي بن خليل ، وابراهيم بن سمّاك . وسنتحدث عن شعرهم في فقرة لاحقة .

الرثاء :